

المسيح هو آخر مسيحي؟

"إن أراد أحد أن يتبعني، فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني"

هذه العبارة أطلقها فيلسوف ملحد ساخرًا من المسيحية. هذا هو تحدي المسيحيين الدائم، أن يبرهنوا أنهم مثل مسيحيهم، وإلا فالمسيحية ماتت مع المسيح على الصليب. هناك عدة أعياد نعيّد فيها للصليب المقدّس، أهمّها عيد رفع الصليب في الرابع عشر من أيلول، واليوم عيد السجود للصليب الكريم في وسط الصوم الأربعيني المقدّس. إنّنا نلاحظ الاختلاف في النصوص الإنجيليّة المختارة لهذه الأعياد. ففي رفع الصليب نقرأ رسالة بولس الرسول حيث يقول إنّ الصليب هو فخر لنا بينما هو عثرة للآخرين وجهالة للأمم، ويتكلّم الإنجيل عن حادثة صلب المسيح بين لصين. وذلك كلّه عودة إلى معنى العيد بالذات، وهو العثور على صليب المسيح عندما وجدته الملكة هيلانة، واعتباره علامة الظفر المسيحية. أمّا في قراءات الكتاب المختارة لهذا اليوم، وهو عيد السجود للصليب وليس تكريم رفعه كما في الرابع عشر من أيلول، فإنّنا نقرأ نصّاً من الرسالة إلى العبرانيين الذي يتكلّم عن المسيح كرئيس كهنة وعن ذبيحته. ويحدّثنا الإنجيل، ليس عن الصليب كتاريخ، وإنّما عنه كقضية. يكلمنا عن بذل الذات عند تلاميذ المسيح.

نعم، إنّ صليب المسيح، رئيس الكهنة، كان مذبحه. الصليب هو المذبح الذي صار عليه المسيح مقدّمًا ومقدّمًا، ذابحًا وذبيحة، كاهنًا وضحية. هذا هو المعنى الحقيقي للصليب، أنّه مذبح. لهذا نسجد له. لهذا نعلّقه على صدورنا، نرسمه، ونرفعه في المنازل... إنّ كلّ مكان يجب أن يتحوّل إلى مذبح يقدم المسيحيّ فيه وعليه نفسه ذبيحة. يحقّ قول الفيلسوف: المسيح هو آخر مسيحيّ.

يُعرَف المسيحيون من رسالة الصليب، أي من مقدمة ذاتهم الدائمة على هذا المذبح ذي الخشبين الأفقية والعمودية. والمسيحيون فخورون، وأحسنوا بذلك، إذ يستخدمون الصليب المقدس في كل آن وكل مكان. يُرسم الصليب على الجدران ويعلق على الصدور، يُرسم قبل كل عملٍ، ويُبارك كل خطوة أو تصرف.

نحن بهذه الحركة نسط الصليب مذبحاً، لنقدم كل عملٍ ذبيحة حبّ عليه. حين نحمل الصليب على صدورنا، يصير في الواقع هو من يحملنا. مشهد المسيحي والصليب معلق على صدره يجب أن نراه كمشهد الصليب والمسيح معلقاً عليه. كل مكان أو رُفعت رُسمت عليه إشارة الصليب نراه كتلك الحجرة التي بناها ابراهيم وقدم عليها اسحق ذبيحة. الصليب مذبح للرب.

لنرسم الصليب قبل الطعام، فنذكر أنّ حقنا منه هو حدّ الحاجة. وأن ما بعد ذلك هو حق الآخر، وإشباع للأنايّة مرفوض.

لنرسم الصليب قبل أن نتصرف بأي مبلغ، أو حين نفكر بأموالنا، فنذكر على الفور أنّ المال ليس لنا، وأنّ حقنا فيه هو حاجتنا، والآخرين هم أصحاب الباقي منه. لنرسم الصليب فوق كل مشهد، ولنذكر أنّ لنا منه العفة فقط. لنذكر الصليب أمام كل كلمة ننطق بها فيقودنا إلى عفة اللسان. لنصلب بكلمة أخرى كل شهواتنا، أو بعبارة أوضح لنقدم كل ما لنا ذبيحة محرقة على مذبح الصليب وهو يطهرها من كل أنايّة. لنمد حياتنا كلها في كل لحظاتها وتفصيلها على هذا المذبح الأبدي. ميزة تلاميذ يسوع أنّهم يتبعونه أي يسرون في إثره مصلوبين على مذبح الحب الحي. الصليب هو مذبح يقلب حياتنا من حياة لصوص إلى حياة كهنة. لصوصيّة هي الأنايّة، كهنوت هو المحبة. حمل الصليب هكذا ما هو إلا الصوم بالذات. هذه الممارسات هي أصوامنا.

فالصوم بالعمق هو عملية ذبح دائمة وجراحه مستمرّة لشفاء أنانيتنا. يقلبنا الصوم إلى كهنة الحب الإلهي نحيًا ليس لأنفسنا بل كسيدنا لسوانا. لهذا يترافق الصوم مع الصليب كما المحبة مع المذبح. الصليب هو مذبح بذل الذات، لهذا وُضع في وسط الصوم، لأن غاية الصوم المبارك هي المحبة وشفاء الأنايّة المعشعشة فينا.

المسيح، المحبة الذبيحة، رفع ذاته على مذبح الصليب. ولكنّه أيضاً بالكنيسة يرفعنا، لأننا أحييناه بعد أن شدنا إليه بحبه لنا، يرفعنا على صليبنا لنكون ذبائح ومحركات حبّ وإنسانيّة إلى كل إنسان.

هذا هو المذبح الجديد؛ صليتنا اليومي هو أن ننكر ذاتنا حاملين هذا الصليب مذبحاً لنا في كل مكان، تابعين خطأ سيدنا فنكون له تلاميذ، نموت معه على شبه موته ونقوم معه على شبه قيامته.

لصليتك يا سيدنا نسجد،
ولقيامتك المقدسة نسبح ونمجد.
آمين

